المغرب زمن المرينيين

حميد تيتاو

أستاذ التاريخ بالكلية متعددة التخصصات، تازة،

جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس

تقديم

خلال الحلقة السابقة التي خصصت لتاريخ المغرب زمن الموحدين، لا شك أنكم انتبهتم إلى ما آلت إليه الأوضاع بعد الهزات العنيفة التي أصابت الخلافة الموحدية منذ انكسار العقاب، حينها برز المرينيون لينازعوا هذه الخلافة في مركزها بالمغرب الأقصى، وبعد فترة اضطراب دامت زهاء نصف قرن تمكنوا من تقديم أنفسهم حكاما لبلاد المغرب الأقصى من فاس.

كيف أسس بنو مرين هذه الدولة التي ترسخت في عصرها كثير من عناصر الهوية المغربية كما نعرفها اليوم، وكيف أسهموا في بلورة مرتكزات قام عليها نظام الحكم بالمغرب، مثلما تحددت في عصرها مجمل ملامح الخريطة الجيوسياسية لبلاد المغرب والتي نعرفها إلى اليوم، وكذا ملامح موقع المغرب ضمن المجال الغربي للبحر المتوسط، وتلك بعض من الامتدادات التي تربط بين الحاضر وزمن المرينيين، والتي دفعت بعض الباحثين للحديث عن **"استقرار كثير من أصول الهوية المغربية في الفترة المرينية"**. وجعلت البعض يتحدث عن **"المرينيين معاصرونا"** دلالة على أن كثيرا من عناصر الهوية المغربية المعاصرة تأسست أو تكرست خلال هذه المرحلة.

أولا- **المرينيون في المغرب الأقصى: من متغلبين إلى حكام بمظلة السلطان الحفصي**

تعود نقطة انطلاق الحضور المريني في المغرب الأقصى إلى ذلك الانكسار الذي أصاب الموحدين في وقعة العقاب سنة 1212، إذ استغلت قبائل بني مرين الزناتية الأمازيغية هذه الفرصة مباشرة بعدها لتغادر مجالات تنقلها القاحلة شرق المغرب، والتقدم أكثر نحو المراعي الخصبة في المغرب الأقصى انطلاقا من كرسيف مرورا بممر تازة.

خلال العقود الأربعة الأولى من القرن 13، وبينما كانت دائرة الحكم الموحدي ومركزها مراكش تتقلص، كانت دائرة تغلب القبائل المرينية الرعوية لا تفتأ تمتد، مسيطرة على معظم بادية المغرب الشمالي وبعض حواضره وفرض الضرائب عليها، دون أن تكلف نفسها عناء تبرير هذه السيطرة دينيا أو سياسيا، على الأقل قبل أن يستنجد شيخ هذه القبائل بمظلة سلطان الحفصيين، وحينها بدا متغلبا بالنيابة عن هؤلاء تابعا لهم.

ينبغي أن نشير إلى أن اقتحام قبائل بني مرين للمجالات الخصبة بالمغرب أعقبه أو رافقه اقتحام آخر لقبائل بني معقل العربية من المجال الشرقي نفسه، حيث نزحت بدورها نحو المجالات الخصبة ووصلت إلى بعض مناطق الريف الشرقي وبلاد غمارة، وبعض المجالات القليلة في الغرب وضاحية فاس، وما لبثت أن توجهت نحو سوس والحوز وبلاد حاحا. وسبق هذه التموجات القبلية استقدام القبائل العربية الهلالية الرعوية من قبل الموحدين وتوطينها في بلاد الهبط وأزغار وبلاد تامسنا، ما يحيل إلى تبدلات ديموغرافية بنيوية داخل مجال المغرب الأقصى ما زالت تأثيراتها الاقتصادية والثقافية واللغوية واضحة إلى اليوم.

عموما فقد أشرت سنة 1249 على تحولات مهمة لصالح المرينيين، كان أبرزها اقتحام فاس حيث وجد شيخ هذه القبائل أبو بكر بن عبد الحق نفسه لأول مرة أميرا على المغرب من فاس منافسا لحكامه الموحدين في مراكش.

وقد حدث في غمرة هذه الاضطرابات الداخلية أن فاجئ ألفونسو العاشر ملك قشتالة الجميع بمهاجمة مدينة سلا سنة 1259، وخربها وأسر عددا مهما من أهلها. وكشف ذلك عن تراجع للحضور المغربي في حوض البحر المتوسط. لذلك، فعندما تكفل الأمير المريني يعقوب بن عبد الحق بتحرير سلا في وقت عجز فيه الموحدون عن ذلك، فقد كان يؤسس لأول بروز للمرينيين كهوية سياسية جديدة تسعى لتوحيد البلاد والدفاع عنها.

وبهذا السلاح الشرعي، واصل يعقوب بن عبد الحق عملية التوسع على حساب الموحدين، وانتهت باقتحام العاصمة مراكش في اليوم الثاني من محرم سنة 1269 وأعقبها اتخاذ فاس عاصمة للبلاد بدلا منها.

ثانيا- **تعقيدات البناء، وطموحات الدفاع عن الأندلس وتوحيد المغارب**

كان على يعقوب بن عبد الحق أن يستكمل توحيد البلاد وضبط مفاتيح التراب المغربي. وقد تمكن من التغلب على طنجة ثم سبتة سنة 1273، فضمن بذلك منفذا بحريا متميزا نحو الشمال. كما تمكن من اقتحام سجلماسة وأوقف أطماع عبداويي تلمسان، ومساعيهم في تحويل جزء مهم من التجارة الصحراوية من سجلماسة.

وعندما أصبح المغرب كله تحت حكم المرينيين، وجد هؤلاء أنفسهم وجها لوجه أمام أزمة تبرير حكمهم للبلاد ومنحه الشرعية اللازمة. وقد بادر السلطان المريني يعقوب من أجل ذلك إلى إعلان الجهاد في الأندلس، استجابة لاستصراخ أهلها وأيضا من أجل الانتقال من سلطة سياسية مغامرة لتحقيق مكاسب دنيوية إلى سلطة دينية ومشروعية دعوية. وقد كانت الظروف العامة في غرب المتوسط تستعجل مثل هذا التدخل، أمام توثب القوى المسيحية وتواطئ حكام غرناطة وعزفيي سبتة معها بهدف إبعاد المرينيين عن الحوض الغربي للبحر المتوسط.

حقق السلطان المريني بعد جوازات عدة إلى الأندلس انتصارات كانت جيدة، وتخلى منذ أول عبور عن التبعية للحفصيين، ومكنتهم تلك الانتصارات من إثبات حضورهم في الحوض الغربي للمتوسط.

ويبدو أن ما حققه الجهاد في الأندلس من مشروعية للمرينيين، لم يكن كافيا لمعالجة معضلتهم في هذا المجال. إذ طفح إلى السطح توتر بدا أنه سيستمر طويلا بينهم وأهل فاس، وكان من أسبابه استمرار الجشع الضريبي للمرينيين. وكان الفقهاء والمتصوفة في مقدمة الفئات التي أبدت تحفظا تجاه الحكام الجدد للبلاد. وبينما كان السلطان يحاول تقريبهم بالأعطيات والتعيين في المناصب ودعم المرجعية السنية المالكية بشكل كبير، حدثت في فاس اضطرابات مثلت تجليا لهذا التوتر، حيث تهجمت العامة على يهود فاس سنة 1275 وقتل بعضهم وحرق ديارهم، لأسباب عدة منها على ما يبدو تقريب السلطان لهؤلاء وتمكينهم من جزء مهم من اقتصاد المدينة مقابل أداء الجزية، وربما بسبب انتشار خبر اعتزام السلطان إقامة مدارس تابعة للدولة تمكن من توفير الأطر وتخريج الفقهاء الموالين لها.

عندما بويع أبو يعقوب يوسف سلطانا بعد وفاة والده يعقوب سنة 1286، أدرك أن جهود والده في الأندلس تعصف بها تحالفات صاحب غرناطة مع الطرف القشتالي والأرغوني لوقف النفوذ المريني في البوغاز، واستغلال الجيران بني عبد الوادي لها لتقوية نفوذهم في المنطقة، عبر دعم كل المتنطعين للحكم داخل المغرب. ونتيجة لهذا كله، بدا للمرينيين التفرغ للجبهة الشرقية عوض جبهة الشمال.

وقد كان على الحكم المريني إعداد الجبهة الداخلية لدعم اختيار توحيد المغارب وتوفير المشروعية اللازمة لها؛ كان التطلع إلى خلافة المسلمين في المغرب الاسلامي يحتاج إلى غطاء سياسي ودعم من قبل فئة الشرفاء الذين كانت لهم مكانة متميزة وسط المغاربة؛ حيث

يمكن لمباركتهم أن تمد المخزن بالمشروعية اللازمة، دون الدخول في لعبة ادعاء النسب الشريف باعتباره من شروط الإمامة الكبرى، وإن لم يغب في بني مرين من جهر بهذا الادعاء.

ومن أجل ذلك، تم تقريب الشرفاء وتمتيعهم بالامتيازات، واتخذ القرار الرسمي سنة 1292 بتعميم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف كل عام، وما زال يحتفل به في المغرب إلى اليوم، إلى جانب الاتصال بشرفاء الحجاز ليباركوا جهودهم. وربما وجب أن نضيف أن السلطان المريني اعتمد أكثر من ذي قبل أسلوبا اجتماعيا لطف صورة المرينيين في ذهنية المجتمع من قبيل الإحسان، وبناء المارستانات والإنفاق على المدارس وطلبتها وعلى بعض الفئات الهشة مثل المرضى والفقراء... والأهم من ذلك كله، تأمين الطرقات وكف أيدي الظلمة عن الناس...

أسفرت حملات السلطان يوسف بن يعقوب عن تضييق شديد على تلمسان وحصار طويل دام قرابة تسع سنوات، وكان من الممكن أن تفضي هذه الجهود إلى تغيرات كبرى على مستوى الحكم في بلاد المغارب لولا أنها انتهت بالفشل لأسباب عدة، واغتيال السلطان على مشارف تلمسان في أبريل 1307.

ثالثا- **أواسط الدولة: استقرار داخلي وجني لثمرات الملك**

كانت فترة حكم السلطان أبي سعيد عثمان مرحلة معتبرة من السلم في علاقات المغرب على مستوى المغارب والحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. ومن المؤكد أن تراجع مصاريف الدولة في الحروب الخارجية واستقرار العاهل في عاصمته مكن من ترتيب البيت الداخلي وتنظيم الدواوين وإرساء نظام المخزن المريني بشكل دقيق. ولعلها فرصة للتعريف ببعض مكونات هذا النظام الذي أرساه المرينيون منذ السلطان يعقوب بن عبد الحق على أساس الشراكة المنفعية؛ كان أشياخ القبائل المرينية والقبائل العربية في أعلى الهرم الاجتماعي، محتكرين أغلب المناصب والخطط والامتيازات. وقد تمركز القرار في يد السلطان مدعوما بالوزير أو "أمزوار" أو الحاجب السلطاني، يتبعه صاحب الشرطة ثم أصحاب وظائف القلم مثل صاحب العلامة أو المراسلات، وصاحب الأشغال أو الحسابات، و"قهرمة الدار" الملكفة بالشؤون الخاصة بالبلاط. وأسفل هذه الوظائف، تفرعت خطط ووظائف أقل منها؛ "صاحب المخازن، و"صاحب القصبة" أو الشرطة المحلية، وقائد الأسطول، وأمانة دار السكة، و"ناظر الأخبار" أو الاستعلامات.

وقد أفرزت حاجة المخزن إلى الشرفاء ثم الفقهاء تراتبا اجتماعيا آخر وسط الرعية جعل هؤلاء في مرتبة أعلى إلى جانب أعيان الحواضر والبوادي، مستفيدين في الامتيازات. أما أسفل الهرم الاجتماعي، فقد توزعه الحرفيون وصغار التجار والمزارعون والرعاة والمطالبين بأصناف عدة من الضرائب.

رابعا- **أبو الحسن: سلطان المغارب**

شكل عهد السلطان أبو الحسن مرحلة الأوج في مسار الدولة المرينية، لأن الذاكرة الجماعية للمغاربة تحتفظ لهذا السلطان بصور عن "عدله" وورعه. كانت وراء هذه الصورة الخيرة قرارات جريئة لهذا السلطان في مراجعة السياسة المرينية في مجال الضرائب؛ إذ أسقط جميع المغارم غير الشرعية عن كاهل الرعية في المدن والبوادي. ونتيجة للإصلاح الجبائي، تحول كبار المخزن المريني إلى مجرد خدام مأجورين يتحصلون رواتبهم من بيت المال. ولضمان نجاح هذه الإصلاحات، قرب أبو الحسن "النخب الدينية" إليه، وأسفر ذلك عن نوع من التبني للمنظومة المرينية في أوساط الفقهاء والمتصوفة. وواصل المخزن تقريب الشرفاء بالامتيازات، حيث بدا واضحا أن هذه الإجراءات وتلك التي باشرها السلاطين من قبله كانت تضع اللبنات الأساس ليتموضع الشرف في الموقع الذي احتله بعد العصر المريني أساسا لشرعية الحكم ومرتكزا له.

وربما كان مهما أن نضيف أن من ميزات عهد أبي الحسن، دعمه لجهود من سبقه من السلاطين في التقرب من المتصوفة بحضور مجالسهم وبناء الزوايا والإنفاق عليها، وقبول نصائحهم، وتمويل مواسم سنوية يجتمع فيها المتصوفة.

على المستوى الإقليمي تزايدت أطماع المسيحيين ومنافسة بني عبد الواد على التحكم في البوغاز ما عجل بمشروع أبي الحسن لتوحيد المغارب. وسرعان ما اتخذ القرار، فاسترجع جبل طارق سنة 1333، وضم تلمسان سنة 1337، وأصبح أبو الحسن سلطان المغربين الأقصى والأوسط. وما لبث أن توقف طموحه في الأندلس بهزيمته في طريف سنة 1340. ومنذ هذه اللحظة، توقف عبور الجيش المغربي نحو الأندلس وتركزت الجهود على الدفاع عن السواحل، وتركيز السياسة المرينية في اتجاه الشرق، حيث خرج السلطان في حملة كبرى نحو إفريقية سنة 1346، وقد دخل تونس وأسقط حكم الحفصيين. غير أن هذا التوحيد لبلاد المغارب لم يدم طويلا، وانتهى مشروع أبي الحسن إلى الفشل لأسباب عدة لا يسمح الوقت بالتفصيل فيها.

وقد اجتهد أبو عنان في مواصلة مسيرة والده بعد وفاته، فرسخ سيرته في "كسب القلوب"، لكنه تميز عن سابقيه عندما تحلى بلقب إمارة المؤمنين بعد أن تلقب من قبله بإمارة المسلمين. وحاول توحيد المغارب؛ لكن حملته توقفت قبل الوصول إلى غايتها بسبب توترات داخل الجيش المريني عجلت بتشتته.

خامسا- **أزمة النصف الثاني من القرن 14 وعهد الاحتضار الطويل**

كانت بدايات الأزمة التي عصفت بالمغرب بعد منتصف القرن 8هـ/ 14م مع ظروف الطاعون الأسود الجارف الذي وصل إلى المغرب سنة 1348، وقد أتى الوباء على أعداد هائلة من السكان، وأصاب الاقتصاد بالشلل، ودبره المغاربة بكثير من الأدعية والتعاويذ والوصفات البسيطة في الغالب وبأدوية تجريبية أحيانا، وبالحجر الصحي من قبل الأشخاص أو الدولة، وصادف الوباء انكسار جيش أبي الحسن في إفريقية وفقدان جبل طارق والحضور المغربي في الأندلس والبوغاز، وتحولا للطرق التجارية من مالي نحو مصر لم تستعد ألقها رغم سفارة ابن بطوطة من أبي عنان إلى حكام مالي، فكان ذلك كله بداية لانكسار طويل، وتحول عميق في العلاقة بين جنوب البحر المتوسط الذي ذب فيه الضعف والشمال المتوثب للسيطرة والتوغل بعيدا على حساب المغرب ومصالحه.

على المستوى الداخلي، اكتملت ملامح ثورة مضادة كانت تفتعل داخل النخب العسكرية والسياسية في المخزن المريني والتي تضررت من القرارات الإصلاحية التي نفذها السلطان أبو الحسن. فدخل المغرب الأقصى في مرحلة طويلة من المشاحنات وتعدد الأوصياء والوزراء المتنفذين، وبتدخل ودعم أحيانا من بني الأحمر بغرناطة أو بني عبد الواد بتلمسان. واتسمت بتنصيب سلاطين صغار السن، أطفالا أو فاقدي الأهلية، وكثرة عمليات الخلع أو القتل في صفوف الأمراء. وبسبب تضارب المصالح بين الأشياخ والمتنفذين ورغبة كل واحد منهم في التحكم، فقد انطلق مسلسل طويل من الدسائس راح ضحيته أمراء ووزراء وحجاب أيضا.

وفي ظل هذه المتغيرات الكبرى وأمام ضعف المخزن المريني، وصلت غارة لسفن قشتالية إلى تطوان فدمرتها سنة 1399، وما لبثت سفن البرتغاليين أن اقتحمت مدينة سبتة سنة 1415، ليبدأ مسلسل سقوط السواحل المغربية في يد الأجنبي طيلة القرن 15. وفي الوقت الذي كان فيه الأوصياء الوطاسيين على آخر السلاطين المرينيين يحاولون إعلاء مكانتهم على حساب سمعة المرينيين ونفوذهم، كانت مشاتل الإنقاذ وسط المجتمع تتفاعل لتنتج حركية جديدة لتأسيس إمامة كبرى قوامها شرف تم التمهيد له منذ بدايات المرينيين وسند صوفي لم يُعهد له مثيل.